

التاريخ في سبر أبطار

ابراهيم لنكولن

قربة الاصراج الى عالم الحرية

للأستاذ محمود الخفيف

- ٧ -

يا شباب الوادى ! خذوا معاني المنظمة في
نسقها الأعلى من سيرة هذا العاصم العظيم

وعادت السياسة تتطلب منه جهداً غير يسير ؛ فهو اليوم
يتحفظ لأن يخطو خطوة جديدة وله من امرأته حافز ومن طموحه
حافز ... تطلع لنكولن إلى مقعد في ذلك المؤتمر الذي كانت تمثل
فيه الولايات الأمريكية جميعاً والذي كان يعمد لينظر في الشؤون
العامة لتلك الولايات ومقره وشنجنطون . وما كان ابراهيم
ليستبعد الشقة أو ليستعظم الفكرة ، وقد قضى ثمانية أعوام في
مجلس المقاطعة

ولكن رجال حزبه وجهوا أنظارهم إلى رجل غيره من أفراد
ذلك الحزب ؛ وتقدم ذلك الرجل لياخذ الطريق على ابراهيم
ولكنه لم يظفر بالترشيح ، ورشح رجل غيره وانتخب ؛ واضطر

هو أن ينتظر عامين حتى جاء دوره فانتخب ؛ وظل بذلك لنكولن
أربعة أعوام يتطلع إلى مقعد في المؤتمر ؛ ولقد آله وكدره أن
ياخذ الطريق عليه رجالان من حزبه يراها دونه ؛ ولكن روحه
الوثابة ما كانت لتعرف الملل فيما تتجه إليه من الأمور

سحنت الفرصة بعد تلك الأعوام الأربعة ولكنها أوشكت
أن تفلت منه هذه المرة أيضاً لولا ما كان من مهارة زوجه ولبانتها
في التأثير على رجال الحزب حتى ظفر آخر الأمر بالترشيح . ولا
تم له ذلك راح يخوض المعركة وأمله في الفوز عظيم ...

وعجب الناس أن رأوا لنكولن يومئذ يعمل على كسب التأييد
بوسائل منظمة وهو الذي اعتاد من قبل أن يصدر في أعماله عما
تليه عليه المواقف في غير تدبير أو ترتيب ... عجب الناس أن رأوه
يرسم الخطط ويسدد السهام فلا تخطئ مرماها ، وكأنه في هذه
المعركة الانتخابية قائد في معركة حربية يدبر الهجوم وبعد الدفاع
وهو بصير بالموقف خبير بما يدور حوله ، يتميز بالدقة الخاطفة
ما يأخذ مما يدع ، ويتبين - مهما اشتد من حوله ضجيج الموقف -
الطريق المؤدية إلى النصر

كتب إلى جميع أصدقائه في نواحي الدائرة يطلب إليهم المون
ويسألهم أن يدلوه على مؤيديه ليكتب إليهم ، وعلى مخالفيه ليبتني
إلى إقناعهم الوسيلة ؛ وراح يتحدث في الأندية ، ويخطب في
الجماعات ، لا يدع فرصة ولا يتخلف عن موعد ، وله من نباهة
الذكر وطيب السمعة ومن حجة الناس لشخصه ما ينزله على الرحب
أيما حل ... وهل كان الناس يعرفون في خلقه غمزة ؟ هل كان
الناس يعرفون عن « أيب » الأمين إلا ما يحببه إلى قلوبهم ؟
هل كان يجهل خاصة الناس وعامتهم المحاي الصادق السر ؟ وهل
كان ينسى العامة ذلك الرجل الطيب القلب الذي يجلس بينهم
كأنه أحدهم ، فيشاركونهم أفراحهم وأراحهم ويبادلهم ودّاً بود
وحبّاً بحب ، ويبتهم من نصائحه ما ينير لهم سبيلهم ، ويسمهم
من طرب أحاديثه ورائع أقاصيصه ما يبهجهم ويسرى عن
نفوسهم .. ؟

لم ينس الناس ولم يجهلوه ، ولكن للسياسة أحكامها ولها
غرائبها ، وكم تأتي رياحها الهوج على ما بين الناس من مودة ،
وكم تترك ألاعيبها وأضاليلها الناس في عمية وغواية ، وكم تصدم

الشهوات في مركبتها عن الحق وهم يملكون ! أجل كم يظنهم في السياسة الباطل على الحق ، وكم يدنس الرأي بالهوى ، وكم يضيع ما تواضع عليه الناس من أسول الفضائل فيما كُزِّن لهم من أوهام وأحلام ، وما توحى إليهم من غرور العيش ومطامع الحياة ؛ وكم يذهب ما درج عليه العرف وما نشأ عليه القدوق وما تمت عليه المشاعر هباءً فيما تآنى به السياسة من بهتان !

هذا لنكولن راح بطمأنينة منافسه في عقيدته ويلجأ إلى الدين فيتخذ منه سلاحاً فيكيد له به كيداً أليماً ؛ وهو لا يرعوى عن غيه بوازع من خلق أو بدافع من حياء ؛ أجل إن من كان له من حسن سيرته ونقاء طويته وصدق إخلاصه درع يرد عنه السهام مهما كانت صنوفها ، خليف ألا يابه لا يتقول عليه البطلون ؛ بل إنى لأعتقد أنهم يحسنون إليه من حيث أنهم يريدون إساءته ؛ إذ هم يشعرون الناس أنهم يتصيدون له العيوب حيث يرونها خلواً من العيوب ؛ ويلفقون له النقائص إذ يرونها يفيظهم بكآله ويسمو عليهم بفضائله ، ويباعد بينه وبينهم بأن يمرض عما يافكون ... بيد أن للإشاعة دويها ، ولها مهما بطلت مجراها وإن تاهت آخر الأمر عن مراسها ؛ وذلك هو ما غاظ إبراهيم وآله وتركه في ضيق مما يفعل منافسه

وكان ذلك المنافس من الحزب الديمقراطي وهو رجل من رجال الوعظ الديني يدعى كارتريت كان مما عرف عنه تدفق نشاطه وتوثب حيويته وذلاقة لسانه فيما يتافع عنه مما يزعجه من الآراء ؛ وهو اليوم يستمدى على إبراهيم مواهبه ويسلط عليه لسانه في غير إعياء أو سأم ؛ بتهمه بالزيف والالحاد مشيراً إلى بعض ما كتبه لنكولن من قبل من رسائل نقدية حل بها على بعض رجال الدين أن رآهم ينقمون على الناس فجورهم وينكرون عليهم فواحشهم دون أن يقوموا بنصحهم أو بمملوا على خلاصهم مما هم فيه

ذهب لنكولن مرة إلى حيث انضم إلى جماعة يستمعون إلى منافسه في حديث ديني ؛ وبعد هنية قال منافسه : « ليقف كل من يريد أن يحيا حياة جديدة وأن يسلم إلى الله قلبه وأن يذهب إلى الجنة » ... ثم أردف قائلاً : « ليقف كل من لا يريدون أن يذهبوا إلى الجحيم » ... ووقف الناس جميعاً ما عدا لنكولن فاتجه الرجل إليه وقال : « هل لي أن أسألك يا مستر لنكولن

إلى أين أنت ذاهب ؟ » ونهض لنكولن فقال : « أتيت هنا لكي أستمع في احترام ، ولم أكن أعلم أن الأخ كارتريت سيعمل على إفرادى هكذا ؛ إنى أومن أنه يجب أن تطرق المسائل الدينية بما هي جديرة به من التوقير . يسألني الأخ كارتريت في غير التواء إلى أين أنا ذاهب ، وإنى أجيبه في غير التواء أيضاً أنى ذاهب إلى المؤتمر »

وجلس لنكولن بين ضحكات الإعجاب تنبعث من جوانب السكان ، وقد كسب عدداً جديداً من المؤيدين

وعلم لنكولن أن خصومه يرمونه فيما يرمونه به من الأباطيل بأنه أرسطراطي لا يحفل رجاء العامة ولا يستجيب لهم دعاء ؛ وأن هؤلاء الخصوم يتلمسون البرهان على دعوائهم في زواجه من ماري ، فدفع تلك التهم عن نفسه بإشارته إلى حياته الأولى حيث كان « غريباً لم يلق حظاً من التعليم ، معدماً يعمل في قارب نظير أجر لا يتجاوز عشرة دولارات كل شهر »

وتم لإبراهيم النصر وكان يومئذ في السابعة والثلاثين ؛ ورأى

الناس وهم يعجبون أنه حصل على عدد من الأصوات لم يتسن لرجل قبله من رجال حزبه أن يظفر بمثله ؛ وكان الحزب قد أعطاه مائتي دولار لينفق منها فيما يتطلب الانتخاب من أوجه الانفاق ولكنه يرد إليهم المبلغ بعد الانتخاب ولم ينقص سوى ثلاثة أرباع الدولار ، قائلاً إنه لم تكن به حاجة إلى النقود حيث أنه كان يتجول على جواده وأنه كان ينزل ضيفاً على أسدقائه ...

وفرحت ماري بالنصر وحق لها أن تفرح ولها في الجهاد نصيب ، ولها في المستقبل آمال . أجل أحست ماري أنها تخطو خطوة واسعة نحو هدفها ، وهل كان ذلك الهدف إلا كرسي الرئاسة يتربع عليه زوجها ؟ إنها ما تفتأ تستحبه وتشد أزره وتحذر أن ينصرف عن وجهته ؛ عرض عليه قبل الانتخاب أن يشغل وظيفة حاكم مقاطعة النيوس ، ولكنها صرفته عنها ليستقيم على الطريق ويدلف إلى الغاية ...

صار لإبراهيم اليوم بين رجال حزبه شأن غير شأنه بالأمس وأصبح له في السياسة مكانته وخطره . على أن مهنته لازالت هي المحاماة وسيظل محامياً حتى تنتهي إليه الزعامة ، وتلقى إليه قضية البلاد الكبرى وتتوافى له أسباب تلك الرسالة التي هو مؤديها في غد إلى أبناء وطنه جميعاً

تحت إمرتهم . ولما كان أهل الولايات الجنوبية أهل زراعة فقد كان اقتناء العبيد عندهم أمراً أساسياً يقوم على الضرورة إذ لا نستقيم حياتهم إلا به ؛ ومن ثم لم يكونوا ينظرون إلى مسألة العبيد تلك النظرة الانسانية التي أخذ ينظرها بعض الناس بعد الاستقلال ، فنطةهم يقوم على المادة ويستند إلى الوقائع ، ولا عبء بعد ذلك بآراء الشفيعين العاطفين ...

ولما أعلنت حقوق الانسان في مستهل الثورة ، كان في مقدمتها أن الناس جميعاً أحرار ومتساوون في الحقوق وليس لأحد أن يسلبهم حقوقهم . وقد أخذ أهل الولايات الشمالية بهذه المبادئ فيما يتعلق بالعبيد فأعتقوهم ، ولم يكن السود عند أهل الشمال في الجلة سوى خدم في المنازل ، وذلك لأن أهل الشمال كانوا أهل صناعة أكثر منهم أهل زراعة ، فلم يكونوا كأهل الجنوب يرون اقتناء العبيد أمراً جوهرياً بالنسبة إلى حياتهم ، لا تتطلب زراعة القمح عندهم جهداً عسيراً ومن ثم فلا يتطلب استخدام العبيد ؛ ولكن القطن في الجنوب يستلزم اقتناء هؤلاء السود الأقوياء الذين يتحملون الجهد ويقوون على الحر ويروضون بالقليل

وفي غداة الاستقلال هدّد أهل الجنوب أهل الشمال أنهم ينسحبون من الاتحاد إلا أن يترك لهم حق اقتناء العبيد فاثبت إن السود عندهم ليسوا مجرد رجال بل هم بعض أدواتهم ، وخيل للناس أن الاتحاد منغصمة عمراء لا محالة ؛ وأشفق الزعماء أن يضيع الاستقلال الذي اشتروه بدمائهم وأموالهم ؛ لذلك لم يروا بدءاً أن يهاونوا بعض الشيء وأن ينصوا في القانون أنه لا يسمح بعد عشرين عاماً باستجلاب طوائف من السود من أفريقيا ؛ ومعنى ذلك أنهم يسلّمون ولو إلى حين لأهل الجنوب بامتلاك العبيد ، ويسلمون بذلك في صورة شرعية !

وتزايد إقبال الولايات الجنوبية على اقتناء العبيد حينما ازدادت أوروبا إقبالاً على طلب القطن ، وقد أخذت الآلات تعمل عمل الأيدي وعلى الأخص في حليج القطن ؛ وكان كلما ازداد طلب القطن ازداد حشد السود لزراعته وجمعه فكانوا يساقون إلى الحقول جماعات تحت إمرة رئيس من البيض ، وإنهم لينظرون في فزع إلى ما في يده من سوط طالما ألهم جلودهم فزقها وأدماها ؛ فإذا

وكانت مسألة العبيد قبيل انتخابه قد عادت تظهر في وضع جديد ؛ ذلك أن إحدى الولايات وهي تكساس كانت قد انسلخت عن المكسيك أو كادت ، فلما أرادت أن تنضم إلى الولايات المتحدة أعلنت المكسيك حقها عليها ، ولكنها لم تبعاً بذلك الحق وجمعت الأمر للسيف ؛ وخاضت بذلك المكسيك غمار حرب ضد تكساس وضد الولايات المتحدة التي كانت تعاونها من قبل على الاستقلال لتضمها إليها . وكان أهل الولايات الجنوبية يجحدون ضم تكساس إلى الاتحاد لكي يطعموها بطابعمهم ويضيفوها إلى الولايات التي يسمح فيها ببداً اقتناء العبيد ؛ ولكن أهل الولايات الشمالية كانوا يتنكرون لذلك ويرغبون عن الحرب ؛ وكان لنكولن ورجال حزبه ضد هذه الحرب وهم في ذلك يشايرون كلي زعيم الهوجز والمرشح يومئذ لرياسة الولايات ؛ ولقد تنلب الحزب الديموقراطي ، ففشل كلي في الانتخابات بسبب آرائه عن تلك الحرب .

ولقد كان لنكولن قبيل انتخابه للمؤتمر ينقم على تلك الحرب ويدعو إلى انتخاب كلي للرياسة ؛ لا يفتأ ياتي الخطب وينشر الدعوة بكل ما يملك من الوسائل . ولم تكن نعمته على الحرب نشيماً منه لزعيم الهوجز فحسب ، بل لقد كان يكرهها لأنها تمكن لأهل الولايات الجنوبية في مسألة العبيد وهو يعمت تلك المسألة من أعماق قلبه ؛ وإن نفسه لتتفر منها منذ ذهب إلى أورليانز ورأى ما لا ينساه من منظر هؤلاء البشر يساقون في الأغلال إلى حيث يباعون في الأسواق كما تباع الدواب

وما أصل تلك المشكلة التي تظهر في ميدان السياسة حيناً بعد حين ؟

بدأت مشكلة العبيد من عهد بعيد ولقد كانت تلك المشكلة بعد استقلال الولايات الأمريكية عن إنجلترا من أشد المشاكل خطراً حتى لقد كان الناس يرونها عقبة تحول دون بقاء الاتحاد . جلب التجار منذ بضعة قرون من أفريقيا طوائف من الزنوج باعوها في أمريكا ، ورأى سكان الولايات - وجلهم من الأديبين المهاجرين إليها من أوطانهم - في اقتناء هؤلاء العبيد ما يهون عليهم الكدح في طلب العيش ونظروا إليهم نظرهم إلى الدواب ، فأخذوا يشترونهم ويسوقونهم إلى الأدغال والأحراج يشقونها

غابت الشمس جيء بهم كالفطير فادخلوا في حظيرة تأويهم جميعاً حتى الصباح ...

ولم يكن أحد من السادة أهل الجنوب يسأل عما يفعل بمبيده ؛ ولو أنه ساقهم إلى الموت كما يسوق كلابه لما أحس بينه وبين نفسه أنه يأتي أمراً منكراً ؛ وكان يمن عليهم هؤلاء السادة أنهم يطعمونهم ويسقونهم كأنهم يريدونهم أن يعيشوا بلا طعام ولا شراب ؛ ولا تسل عما كانوا يلاقونه من صنوف العذاب إذا بدا لهم أن يظهر ما ينم على استيائهم أو حتى على مجرد تألمهم لما يصب عليهم من وصب ؛ بل ما كانوا يمانونه من بلاء إذا انتشرت الحمى وفشت فيهم وهم جوع متقاربون ...

وكانوا في الأسواق يحشرون كما تحشر الخيل عارية أجسادهم فيباعون ، وكثيراً ما كان ينتزع المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وكثيراً ما كانت ترسل الفتاة إلى مزرعة وأختها إلى مزرعة وأهلها إلى حيث لا تعلم لهم مستقراً ولا مستودعاً . ولقد نسى لآبراهام أن يرى هاتيك الأسواق في رحلته إلى نيو أورليانز فاستقر في نفسه الألم ؛ وكأنه رأى لساعته أن رسالته في غد تحرير هؤلاء الساكنين . وكثير من عطاء النفوس تقع في نفوسهم الفكرة في سرعة كلحة البرق ، وتظل تلك الفكرة وإن لم يشعروا بها في أعماق وجدانهم كالبدرة في أعماق التربة ، وما تزال تنمو تلك الفكرة وتنمو حتى غمك عليهم آخر الأمر مشاعرهم فتحرّكهم وتوجههم حتى لا يكون لهم لقد من أمل في الحياة سوى إرأزها ثم الدفاع عنها ، ثم التضحية من أجلها ثم الموت في سبيلها إن لزم الأمر ...

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما اعتقد ، وإن لم يشعر هو في صدر شبابه أنه عامل في غده للقضاء على العبودية ؛ ذلك ما كان من أمره وإن لم يلق باله إلى ذلك الأمر . إن نفسه لتجيش بكراهة هذا النظام ، وإن إنسانيته لتتفر بطبيعتها من تلك الوحشية ، ثم إن قلبه الكبير ليتمنى أن يخلص هؤلاء النساء مما هم فيه من عذاب ومذلة ، وما ذلك لممرك إن لم يكن هـ الارهاص ؟

ولم يكن للمبيد حق حتى في الهجرة ، وكان إذا أبعد أحدهم إلى إحدى الولايات الشمالية التي أطلقت المبيد أعيد إذا عرف إلى سيده ومالكه بأمر القانون فلا ينفعه الفرار إلا أن يفر إلى الموت ...

ولقد أدى ما كان عليه المبيد إلى ظهور دعوة في الشمال إلى تحريرهم ولكن أصوات الداعين كانت خافتة ، كما كان عددهم ضئيلاً ، إذ كانوا يحسون ما تنطوي عليه دعوتهم من جرأة ، وكانوا لا يأمنون أن يأنهم الموت من كل مكان ، فأهل الشمال مع أنهم لم يتمسكوا بالمبيد يخشون أن تؤدي الدعوة إلى تحريرهم إلى القضاء على الاتحاد ، وأهل الجنوب كانوا كما علمنا يرون حياتهم في بقاء المبيد . لذلك كان الداعون إلى التحرير عرضة لسطخ الجانبين . ولقد حدث أن أصدر أحد الرجال من ذوى النفوس الكبيرة صحيفة تدعى « المحرر » كان يندد فيها بما يلاق المبيد ويدعو إلى تحريرهم ، أيام كان لنكولن في الحادية والعشرين من عمره ، فلما اشتدت حملاته هاجمه الناس وحطموا دار الصحيفة وألقوا بأدوات الطباعة في مجرى مائى ، ولفوا جبلاً حول وسطه وسحبوه في الطرق تنكيلاً به وزجراً لغيره

لذلك لم يكن عجباً أن تقدم الشكاوى إلى مجالس المقاطعات الشمالية يومئذ ضد حركة التحرير والداعين إليها خوفاً على الوحدة أن تتصدع . ولقد رأينا لنكولن يقدم احتجاجاً إلى مجلس مقاطعة الينوس هو وصديق له يدعى ستون وفيه يخطو خطوة جريئة فيعلن رأيه في صراحة قائلاً إن مسألة المبيد لا تقوم على شيء من العدالة ، ولكنه يشير إلى مراعاة القانون في النظر إلى تلك المسألة خوفاً على كيان الاتحاد

وها هو ذا اليوم يختار عضواً للكونغرس وهو في السابعة والثلاثين وقد عادت المعضلة تظهر بسبب ما حدث في تكساس ومحاولة ضمها إلى الولايات

« يتبع »

الخطيف

منار الرشيد

كتاب حديث يكشف عن أسرار الوجود ويشرح الحقائق

ويرى القارى الروح ويعرفه بالله

لمؤلفه إبراهيم السيد بشارع كنيسة الراهبات نمرة ٣١

ويباع في المكتاب الشهيرة